من معالم التيسير في تفسير السلف

د. عيسى بن ناصر الدريبي *

ملخص البحث

يُعنى هذا البحث ببيان معالم التيسير في تفسير السلف؛ وذلك لحاجة المسلمين عموماً إلى تفسير ميسر قريب الفهم، فقد كانت – ولا تزال – هناك محاولات لتيسير التفسير. وأرى أن تفسير السلف بعباراته المختصرة الواضحة في كثير منها يمكن الخروج منها بتفسير مختصر.

وقد قدّمت لذلك بتعريف بمصطلح السلف الذي أعنيه في هذا البحث. ثم تناولت حاجة المسلمين عموماً، والأعاجم على وجه خاص إلى تفسير ميسر، ثم بينت منطلقات أهمية تفسير السلف، وأبرزها:

تمكنهم من أدوات التفسير، وتوقف بعض أنواع علم التفسير على النقل عنهم، إضافة إلى كونهم أهل الإسلام الذين نزل بلسانهم القرآن، وكونهم عاشوا في القرون المفضلة.

ثم خلص البحث إلى ذكر بعض معالم التيسير في تفسير السلف. ومن أهم هذه المعالم: الوقوف عند التفسير النبوي، والاكتفاء بسبب النزول، وعدم التكلف في دلالات الكلمة والتفسير بالمعنى، والتفسير بالمثال، والتفسير بالنتيجة والثمرة، والتفسير بالواقع، والتفسير بالوسائل التعليمية، والتفسير بظاهر اللفظ.

* الأستاذ المساعد بقسم الدراسات القرآنية في كلية المعلمين بالرياض.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ليكون للعالمين نـذيراً، والـصلاة والـسلام على خير المرسلين المبلِّغ عن رب العالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وبعد:

فقد أنزل الله -عز وجل- كتابه الكريم ليكون هداية للناس من الظلمات إلى النور، ومبيناً لطريق الحق؛ ليسلكه الناس ويهتدوا إلى طريق الله، وإلى صراطه المستقيم كما قال الله عز وجل: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وشرع الله -عز وجل- فيـه مـن الـشرائع مـا يكفـل للبـشرية الـسعادة والأمـن، فجاءت التنظيمات المتعددة في الأحوال الشخصية والأحكام الفقهية التـي تـنظم حيـاة الإنسان، وما يتعلق بها حتى بعد وفاته، والتنظيمات الاجتماعية على مـستوى علاقـات القرابة بأنواعها، والعلاقات مع الأديان الأخرى من غير المسلمين.

إضافة إلى ما ذكـره الله -عـز وجـل- في كتابـه مـن دلائـل التوحيـد والألوهيـة، وعظمته في أسمائه وصفاته، ومخلوقاته الدالة على عظيم قدرته وإبداع صنعه -سـبحانه وتعـالى-؛ فهـو كتـاب هدايـة، وبـشرى، وشـفاء، وموعظـة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

وقد شاء الله لكتابه الكريم الخاتم المنزَّل على خـاتم الأنبيـاء والمرسـلين أن يكـون بلسان عربي مبين، بلغـة مـن أنـزل علـيهم ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]. فكان فهم القرآن، ومعرفة معاني آياته وأحكامه أمراً ميسراً على من تلقاه من الصحابة رضوان الله عليهم، فلم تنشأ حاجة إلى تفسير أغلب القرآن، لنزول القرآن بلغة العرب وطرائقهم وأساليبهم في البيان والتعبير.

ثم احتاج الأمر إلى تفسير كثير من غريب القرآن، وشرح آياته، ولا سيما فيما يتعلق بجانب الرواية وأسباب النزول، وتطور الأمر في الاهتمام بالتفسير كغيره من العلوم.

واعتنى العلماء بتفسير القرآن وبيانه للناس، وكان هناك عدة مناهج لتفسير القرآن، وكتبت التفاسير المتعددة المطوَّلة والمختصرة، وكلها تهدف إلى بيان مراد الله واستنباط الأحكام والتشريعات. وقد قصد بعض المفسرين إلى تيسير التفسير بهدف تقريبه لعامة الناس، فألَّفوا عدة مؤلفات مستقلة لخدمة هذا الهدف.

من هنا جاءت فكرة هذا البحث لدراسة معالم تيسير التفسير من خلال تفسير السلف؛ لأن أقوال السلف في التفسير في مجملها تشرح الآيات باختصار يفهم منه مراد الآيات على نحوٍ ميَسَّر.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- إن الغالب على المسلمين -حتى من يتكلم العربية- أنهم يخفى عليهم كثير من معاني القرآن؛ بسبب جهل معاني مفرداته وغريبه، ومن هنا تنشأ الحاجة إلى التفسير؛ إذ التفسير هو النور الكاشف لفهم كلام الله، يقول إياس بن معاوية: «مَثَلُ الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما في الكتاب»[1].

٢- إن المسلمين الناطقين بغير العربية من أحوج الفئات إلى إخراج تفاسير مترجمة مختصرة واضحة توقفهم على فهم مراد الله من كتابه، من غير الدخول في قضايا البلاغة أو التفصيلات اللغوية. وطريق ذلك: إما تأليف تفاسير ميسرة باللغة العربية صالحة للترجمة إلى اللغات العالمية الأخرى، ويراعى هذا في نمط التأليف في العناية بالتعبيرات، والألفاظ الواضحة غير المحتملة لمعانٍ بلاغية قد لا يستطيع المترجم نَقْلَها

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢٦).

كما هي، أو تأليف تفاسير ميسَّرة بلغة القوم من علماء متمكنين من علوم العربية والتفسير والشريعة ومتمكنين من لغتهم الأصلية. وفي ظني أن هذا أصعب، والمتقنون لأدوات هذا المشروع قلّة في أقوامهم في الألسن غير العربية.

٣- إن التفاسير الموسَّعة -التي تعنى بالتفسير التحليلي الذي يفصِّل فيه في دلالة الكلمة ومعانيها، وأصولها، واشتقاقاتها وأثرها البلاغي، والأحكام الفقهية، والاستنباطات الدقيقة- لها أهمية كبرى، لكن هذا اللون من ألوان التفسير يختص به أهل الاختصاص وخواص طلاب العلم -وهم قلة في الأمة- بينما غالب الأمة وعامتهم بحاجة ماسَّة إلى تفاسير ميسرة تُقرِّب لهم معاني كتاب الله.

٤- ومن هنا فإن تيسير التفسير من الحاجات المُلحَّة إلى المسلمين في كل زمان، وخاصة في عصرنا هذا.

٥- إن أقوال المتقدمين من سلف هذه الأمة وجيزة، وبركتها كثيرة، فكانوا يؤدون المعنى في تفسير الآية بعبارات موجزة سهلة، قريبة الفهم، من غير خوض في التفصيلات أو استطراد في التشقيقات، أو تكلف في الإشارات، وقد تهيأ لهم من المؤهلات ما جعل لتفسيرهم قيمة عالية،سيأتي الحديث عنها إن شاء الله.

٦- هذا الجهد المبذول من السلف في التفسير يحتاج إلى بذل جهود لإبرازه، وتقريبه، وجمعه فأردت من هذا البحث دراسة بعض معالم التيسير في تفسير السلف.

خطة البحث

تتكون الخطة من مقدمة،وتمهيد، ومبحثين:

أولاً: المقدمة، وفيها:

أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث.

ثانياً: التمهيد، وفيه:

أ- تعريف بمصطلحات البحث:

١ – السلف.

٢ – التيسير.

ب- المحاولات السابقة للتيسير.

المبحث الأول: منطلقات أهمية تفسير السلف، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مكانة السلف في القرآن والسنة.

المطلب الثاني: تمكنهم من أدوات المفسر (اللغة، أسباب النزول...).

المطلب الثالث: توقف بعض أنواع علم التفسير على النقل عنهم.

المبحث الثاني: من معالم التيسير في تفسير السلف.

١ – الوقوف عند التفسير النبوي للآية.

٢ – الاكتفاء بسبب النزول في تفسير الآية.

٣- التفسير بالمعنى.

٤ – عدم التكلف في دلالات الكلمة واشتقاقاتها.

٥- التفسير بالمثال.

٦- التفسير بالنتيجة والثمرة والأثر.

٧- التفسير بالواقع الذي نزلت الآية لمعالجته.

٨- التفسير باستخدام الوسائل التعليمية.

٩- التفسير بظاهر اللفظ.

١٠- تفسير الآية ببيان ضد معناها.

١١- تفسير الآية بسياقها القَبْليّ والبَعْديّ.

١٢- تفسير الآية ببيان حال من خالفها من الأمم السابقة.

التمهيـد

وفيه موضوعان، وهما:

الأول: التعريف بمصطلحات البحث.

١- مصطلح السلف:

ينبغي تحديد المراد بهذا المصطلح؛ لما يُبْنَى عليه من نتائج ودراسات في بحثي هـذا. وسأتناول هذا المصطلح في لغة العرب، وعند علماء الشريعة.

أ- السلف في اللغة:

السلف في لغة العرب: تدور مادة "سَلَفَ" على معاني: السبق والتقدّم. قال ابن فارس: «السين واللام والفاء أصلٌ يدل على تقدّم وسبق، ومن ذلك: السَّلف: الذين مضوا»(١). ويقول ابن منظور: «السالف: المتقدم، والسلف: الجماعة المتقدمون»(٢).

ويقول الراغب: «السَّلف: المتقدم، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]»(٣).

ب- السلف عند علماء الشريعة:

اختلفت أقوال العلماء في تحديد مصطلح "السلف" على أقوال منها:

الأول: أنهم الصحابة والتابعون. وممن قال بذلك الغزالي حيث يقول: «اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف، أعني: الصحابة

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: سلف (١/ ٥٦٧).

(٢) لسان العرب، مادة: سلف (٦/ ٣٣٠).

(٣) المفردات، مادة: سلف، ص ٤٢٠.

وانظر أيضاً: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، مادة سلف (٢/ ٢٤٢).

والتابعين»[1].

الثاني: أنهم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين، ومن تبعهم بإحسان من أئمة المسلمين.

هذا التعريف يغلب على المؤلفين في العقائد من أهل السنة والجماعة؛ ليمتدّ بذلك هذا الاسم -الذي هو تزكية- لكل من سار على نهج صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتابعيهم.

يقول السَّفَّاريني: «وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وسائر أصحاب النبي المختار -صلى الله عليه وسلم- والذين تبعوهم بإحسان، وأئمة الهدى بعد هؤلاء، الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وتقدمهم والاقتداء بهم، واتباعهم والسير بسيرهم والنهج على منوالهم»[2].

وجاء في تعريف اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية للسَّلف قولهم:

«**السَّلف:** هم صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأئمة الهدى من أهل القرون الثلاثة الأولى رضي الله عنهم»[3].

ويلاحظ في كل من تعرَّض لتعريف هذا المصطلح ما يلي:

أولاً: الاعتماد على حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في تزكية القرون المفضلة الأُول: (**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**)[4].

---

(١) إلجام العوام عن علم العوام، ص (٥٣).

(٢) لوائح الأنوار السّنية (١/ ١٢٠).

(٣) فتاوى اللجنة الدائمة في المملكة (٢/ ١٦٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- (الصحيح مع الفتح ٧/ ٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، رقم الحديث (٢١٠، ٢١١، ٢١٢).

ثانياً: تعريف هذا المصطلح من قِبَل العلماء الذي يبحثون في العقائد لتحديد المنهج السليم الذي يُسار عليه في أبواب التوحيد والعقيدة.

ثالثاً: ما سبق يستند إلى التزكية للمنتسبين إلى هذا المصطلح.

رابعاً: هذه التزكية لهذا المصطلح والمنتسبين إليه تجري على أقوالهم في تقرير مسائل هذا الدين، وفهمهم لنصوصه في العلوم الشرعية كافة؛ لسبقهم؛ ولأنهم أهل اللغة.

ومن هنا فإن المفسرين أطلقوا مصطلح «التفسير بالمأثور» على ما نقل عن جيل الصحابة والتابعين وتابعيهم. كما فعل السيوطي في «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، ومن قبله الإمام ابن جرير الطبري [1]، وغيرهما من المفسرين الذين حصروا هذا المصطلح في تلك الطبقات الثلاثة الأُوَل مستندين إلى حديث (**خير القرون قرني...**).

وخلاصة القول:

أن هذه الخيرية التي زكَّى بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه القرون الثلاثة، مع ما توافر لأهلها - وبخاصة صحابة رسول الله من مؤهلات -وسيأتي الحديث عنها- جعلت لأقوالهم مكانة عالية، وقيمة متميزة في فهم نصوص القرآن الكريم.

ولذا فمقصودي هنا في هذا البحث بمصطلح تفسير السلف هو:

أقوال أئمة الدين من الصحابة المفسرين، والتابعين، وتابعيهم ممن اشتهروا بالتفسير.

٢- مصطلح التيسير:

التيسير من الكلمات الواضحة في الدلالة على: تسهيل الأمر وتقريبه؛ ليكون في متناول جميع المتلقين، وهو ضد التعسير. ويدل على الأخذ بالأيسر في الأمور، ومن

(١) أشار إلى هذا د. مساعد الطيار في: مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير ص (٢٥٢، ونايف الزهراني، رسالة ماجستير: استداركات السلف في التفسير في القرون الثلاثة الأولى – دراسة نقدية مقارنة ص (١٠-١٧).

ذلك حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **(يَسِّروا ولا تعسِّروا، وبَشِّروا ولا تنفِّروا)**[1]. فالتيسير ضد التعسير، كما أن التبشير ضد التنفير.

والمقصود بالتيسير في التفسير:

هو شرح آيات القرآن الكريم بأسلوب سهل وواضح يفهمه عامة الناس، من غير استطراد في مسائل وتفصيلات لا حاجة إليها في بيان معنى الآية للعامة.

الموضوع الثاني: المحاولات السابقة لتيسير التفسير.

المحاولات المعنيِّة بتيسير التفسير محدودة، بالنظر إلى الحاجة الماسّة على مستوى المسلمين في العالم عربهم وعجمهم. وهذه المحاولات تندرج تحت نوعين هما:

١- الاختصار لتفاسير مطوّلة.

٢- التأليف لتفاسير مختصرة ميسَّرة.

أما النوع الأول:

فهو موضوع طويل، يحتاج إلى حديث مستفيض عنه، ولكني هنا أُشير إلى أن هدفاً من أهم أهداف اختصار المطوّلات هو تيسيرها وتقريبها.

هذا الاختصار أخذ أشكالاً متعددة، مثل حذف الأسانيد من بعضها، أو الاختصار بحذف الروايات المتعددة والاكتفاء ببعضها، أو الاكتفاء بقول المفسر دون النقول والروايات التي يوردها، أو باختيار قول من الأقوال التي يوردها المفسر وحذف بقية الآراء.

ولكن يؤخذ على هذه الطريقة في الاختصار أنها قد لا تؤدي إلى التيسير، فقد يبتر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في عدة مواضع منها: كتاب العلم، باب ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتخولهم بالموعظة والعلم كيلا ينفروا برقم (٦٨)، وفي كتاب الأدب، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «يسروا» برقم (٥٦٦٠)، ومسلم في صحيحه، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير، برقم (٣٢٦٤).

كلام المؤلف الأصلي باختصار مخلٍّ، ويوقع في عدم الفهم والإبهام في الكلام، ثم هنالك فرق بين الاختصار والتيسير، فلا يلزم من الاختصار التيسير.

ومن أهم التفاسير التي اختصرت عدة اختصارات: تفسير ابن كثير، فقد اختصره مجموعة من العلماء وطلبة العلم: اختصره أحمد شاكر، وسمَّاه «عمدة التفسير» وهو من أفضل المختصرات لابن كثير، واختصره محمد نسيب الرفاعي في كتاب سمّاه «تيسير العلي القدير»، واختصره صفي الرحمن المباركفوري في كتاب سمّاه «المصباح المنير».

ومن أخصر المختصرات في التفسير اختصار الدكتور عمر الأشقر لفتح القدير في كتاب سمّاه «زبدة التفسير من تفسير فتح القدير».

أما النوع الثاني: التأليف لتفاسير مختصرة.

فقد قصد بعض المفسرين إلى تأليف تفاسير ميسرة مختصرة في متناول يد عامة الناس، فكان الهدف منها هو تيسير التفسير، ويستفيد منه عامة المسلمين.

وكانت هناك محاولات قديمة، ومحاولات حديثة في العصر الحاضر. فمن التفاسير المختصرة المتقدمة:

- الوجيز، للواحدي (ت: ٤٦٨هـ) وهو تفسير مختصر.
- التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي (ت: ٧٤١هـ).
- تفسير الجلالين، لجلال الدين المحلي (ت: ٨٦٤هـ)، وجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ).

وأما في العصر الحاضر فقد تنوعت المحاولات لتيسير التفسير ما بين الجهود الجماعية والجهود الفردية.

أما الجهود الجماعية فمن أبرز ما كُتب لتيسير التفسير:

«التفسير الميسَّر»، وهو مشروع اعتمده مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

بإشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية. وقد شارك في إعداده مجموعة من العلماء، واعتمدوا منهجاً يشتمل على ضوابط محددة. ومما يشير إلى أهمية هذا العمل -أيضاً- أنه كتب بلغة واضحة سهلة معدّة للترجمة إلى لغات العالم ولا شك أنه مشروع له أهميته في خدمة كتاب الله.

أما المحاولات الفردية:

فمن أفضلها: تفسير الشيخ عبدالرحمن السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» وهو تفسير لطيف قريب الفهم، واضح العبارة، اعتمد فيه الشيخ منهج التفسير الإجمالي، إلا أنه ضمن ضوابط التيسير التي يحتاج إليها عامة المسلمين، ويعد تفسيراً مطوّلاً إذ يقع في عدة مجلدات.

ومن أحدث هذه المحاولات:

«التفسير الميسَّر» للشيخ عائض القرني، وهو تفسير في مجلد كبير، حاول فيه الشيخ شرح الآيات بأسلوبه السهل؛ ليقرّب فهم القرآن إلى العامة.

المبحث الأول: منطلقات أهمية تفسير السلف

تفسير السلف يحمل منطلقات عدة جعلت له قيمة عالية في تفسير كلام الله. ويُجمع العلماء على أنه في أعلى درجات الثقة في التفسير بعد التفسير النبوي، وسأجمل في هذا المبحث الحديث عن أبرز هذه المنطلقات في عدة مطالب.

المطلب الأول: مكانة السلف في القرآن الكريم والسنة.

يقرّر العلماء في كتاباتهم أن أقوال السلف لها مكانتها العالية ومنزلتها الهامة في الدين، فهم الذين شهدوا الوحي والتنزيل، -وأعني بذلك الصحابة الكرام-، ثم جيل التابعين، وكان لقرب عهدهم بالوحي ومشافهتهم من شهد عصر النبوة أثره-، وهم أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأصدقهم بياناً، وأحسنهم فهماً، وأسلمهم مقصداً في أخلاقهم وسلوكهم وأقوالهم. ولا غرو في ذلك، فقد أثنى الله عليهم، وأثنى على من اتبعهم بإحسان، وهذا الاتباع عام في كل الأمور التي يأتي فيها الاتباع، في أصول الدين وفي الشرائع، ومن ذلك تفسير كتاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأثنى عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فزكّاهم بقوله: (**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم..**)[(١)] الحديث. ولذلك: احتج عبدالله بن عباس على الخوارج -حينما ناظرهم- بفهم صحابة رسول الله للقرآن فقال لهم: **(جئتكم من عند أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وليس فيكم منهم أحد،**

(١) سبق تخريجه ص(١٦٤).

ومن عند ابن عمّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله)[1].

المطلب الثاني: تمكنهم من أدوات المفسر (اللغة، أسباب النزول،...).

ولذلك اعتمد كبار المفسرين أقوال السلف في التفسير، ورجَّحوا القول الذي يؤيده قولهم. **فهذا ابن جرير** يكثر في ترجيحاته: ترجيح تفسير الصحابة والتابعين على تفسير من بعدهم، فيقول في أحد المواضع: «غير أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأن ذلك عني به – ثم يذكر القول- ثم يقول: وعليه أكثر أهل التأويل، وهم أعلم بمعاني القرآن، والسبب الذي فيه نزل، وما أُريد به»[2].

ويردُّ في مواضعَ الأقوالَ إذا لم يكن قد قال بها الصحابة والتابعون فيقول: «ولولا أن أقوال أهل التأويل مضت بما ذكرتُ عنهم من التأويل، وأنّا لا نستجيز خلافهم فيما جاء عنهم، لكان وجهاً يحتمله التأويل أن يقال...»[3].

وقال ابن تيمية: «ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنّة، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف أن خير قرون هذه الأمة -في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة- أن خيرها القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة، من علم، وعمل، وإيمان، وعقل، ودين وعبادة. وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام...، وما أحسن ما قال الشافعي -رحمه الله- في رسالته[4]: هم فوقنا في كل علم، وعقل، ودين،

(١) أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله،باب:إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة ص ١٢٦-١٢٧.
(٢) تفسير الطبري (٢٦/ ١٢).
(٣) تفسير الطبري (١٥/ ١٨٨).
(٤) القديمة، كما في المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي ١/ ٤٤-٤٥.

وفضل، وكل سبب ينال به علم، أو يدرك به هدى، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا»[1].

ويؤكد الإمام ابن رجب مكانة كلام السلف في فهم هذا الدين، فيقول: «فأفضل العلوم في تفسير القرآن، ومعاني الحديث، والكلام في الحلال والحرام، ما كان مأثوراً عن الصحابة والتابعين وتابعيهم...، فضَبْطُ ما رُوِي عنهم، في ذلك أفضل العلم مع تفهُّمه وتعقُّله والتَّفقُّه فيه، وفي كلامهم في ذلك كفاية وزيادة، فلا يوجد في كلام من بعدهم من حق إلا هو في كلامهم موجود بأوجز عبارة، ولا يوجد في كلام من بعدهم من باطل إلا وفي كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمله، ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة والمآخذ الدقيقة ما لا يهتدي إليه من بعدهم، ولا يلم به»[2].

ويقرر شيخ الإسلام في موطن آخر أنه لا يجوز العدول عن تفسير السلف، فيقول: «فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان، صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا.

وفي الجملة: **من عَدَل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك**، بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته، وطرق الصواب».

ثم قال: «ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله -صلى الله عليه وسلم- فمن خالف قولهم وفسَّر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٧-١٥٨).

(٢) بيان فضل علم السلف على علم الخلف، ص (٦٧-٦٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦١-٣٦٢).

ويتابع ابنُ القيم شيخَ الإسلام في هذا، فيقول: «فإن قيل... ما تقولون في أقوالهم -يعني الصحابة- في تفسير القرآن هل هي حجة يجب المصير إليها؟ قيل: لا ريب أن أقوالهم في التفسير أصوب مِنْ أقوال مَنْ بعدهم، وقد ذهب أهل العلم إلى أن تفسيرهم في حكم المرفوع، قال أبو عبدالله الحاكم في مستدركه: «وتفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع»[(١)]، ومراده أنه في حكمه في الاستدلال به والاحتجاج، لا أنه إذا قال الصحابي في الآية قولاً فلنا أن نقول هذا القول قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وله وجه آخر، وهو أن يكون في حكم المرفوع، بمعنى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بَيَّن لهم معاني القرآن، وفسَّره لهم كما وصفه تعالى بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فبيَّن لهم القرآن بياناً شافياً كافياً، وكان إذا أشكل على أحد منهم معنى سأله عنه فأوضحه له».

ثم يقول: «فإذا نقلوا لنا تفسير القرآن فتارة ينقلونه عنه بلفظه، وتارة بمعناه، فيكون ما فسروا بألفاظهم من باب الرواية بالمعنى، كما يروون عنه السنة تارة بلفظها وتارة بمعناها، وهذا أحسن الوجهين. والله أعلم»[(٢)].

ويوضح الإمام الشوكاني أسباب هذه المكانة والقيمة العالية لتفسير السلف بتمكنهم من أدوات المفسر من لغة، ومعرفة بالاصطلاحات الشرعية، فيقول: «واشْدُدْ يدك في تفسير كتاب الله على ما تقتضيه اللغة العربية، فهو قرآن عربي كما وصفه الله، فإن جاءك التفسير عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلا تلتفت إلى غيره،... وكذا ما جاء عن الصحابة -رضي الله عنهم- فإنهم من جملة العرب ومن أهل اللغة وممن جَمَع إلى اللغة العلم بالاصطلاحات الشرعية...»[(٣)].

---

(١) انظر: المستدرك (١/ ٢٧-٢٨، ١٢٣، ٥٤٢).
(٢) إعلام الموقعين (٤/ ١٥٣-١٥٤).
(٣) فتح القدير (٤/ ٤٣٨).

ومن أسباب هذه القيمة العالية لتفسير السلف: صحبتهم للرسول -هذا بالنسبة إلى الصحابة- وأخذهم عنه، إضافة إلى استكمالهم لعلوم الآلة.

وفي ذلك ذكر السيوطي في النوع الحادي والتسعين[1] -وهو: من يُقبل تفسيره ومن يُرَدُّ- ذَكَرَ مآخذ التفسير، وأنه يؤخذ عن الصحابة والتابعين؛ لأنه كان عندهم علوم العربية بالطبع لا بالاكتساب، وحصَّلوا بقية العلوم من القرآن والسنة التي تلقوها عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وذكر أن هذا العلم -أي علم التفسير- يؤخذ أيضاً ممن استكمل علوم الآلة التي تعينه على تفسير كتاب الله، ثم ذكر أنَّ مَنْ لم يستكمل تلك العلوم يُرَدُّ تفسيره، ويكون من باب الرأي المنهي عنه.

ولا شك أن الصحابة استكملوا هذه العلوم بالطبع لا بالاكتساب كما ذكر السيوطي.

المطلب الثالث: توقف بعض أنواع التفسير على النقل عنهم:

ومما يجعل لتفسير السلف مكانته العالية: أن قولهم في التفسير يتوقف عليه بعض أنواع علم التفسير كأسباب النزول، والنسخ.

يقول الزركشي: «والحق أن علم التفسير منه ما يتوقف على النقل، كسبب النزول، والنسخ، وتعيين المبهم، وتبيين المجمل...» [2].

وتفسير بعض الآيات المعتمد على النقل لا يمكن إلا عن طريقهم، مثل تفسير المراد بانشقاق القمر عند تفسير آية: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، فإن هذا الانشقاق كان في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد نقل الصحابة هذا

(١) التحبير في علم التفسير ص(٣٢٧).
(٢) البرهان (٢/ ١٧١).

الانشقاق، لحضورهم له، وكل من جاء بعدهم اعتمد على قولهم في تفسيرها[1].

ولذا جعل العلماء ما لايقال فيه من جهة الرأي كأسباب النزول، والإخبار بالمغيبات -ما لم يكن من الإسرائيليات- مما له حكم الرفع، وهذا مما يبين مكانة تفسير الصحابة خصوصاً.

يقول الحافظ ابن حجر: «والحق أن ضابط ما يفسره الصحابي -رضي الله عنه- إن كان مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولا منقولاً عن لسان العرب، فحكمه الرفع، وإلاَّ فلا، كالإخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق، وقصص الأنبياء، وعن الأمور الآتية، كالملاحم والفتن، والبعث، وصفة الجنة والنار، والإخبار عن عمل يحصل به ثواب مخصوص، أو عقاب مخصوص فهذه الأشياء لا مجال للاجتهاد فيها فيحكم لها بالرفع».

ثم قال: «وأما إذا فسر آية تتعلق بحكم شرعي، فيحتمل أن يكون ذلك مستفاداً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن القواعد فلا يجزم برفعه، وكذا إذا فسر مفرداً، فهذا نقل عن اللسان خاصة، فلا يُجزم برفعه.

وهذا التحرير الذي حرَّرناه هو معتمد خلق كثير من كبار الأئمة، كصاحبي الصحيح، والإمام الشافعي، وأبي جعفر الطبري، وأبي جعفر الطحاوي، وأبي بكر بن مردويه في تفسيره المسند، والبيهقي، وابن عبدالبر في آخرين، إلا أنه يستثنى من ذلك ما كان المفسِّر له من الصحابة -رضي الله عنهم- من عُرف بالنظر في الإسرائيليات... فمثل هذا لا يكون حكم ما يخبر به من الأمور التي قدمنا ذكرها الرفع، لقوة الاحتمال، والله أعلم»[2].

ويمكن أن نلخص قيمة تفسير السلف- إضافة إلى ماسبق من منطلقات بما يلي:

١- كونهم في القرون المفضلة.

٢- أنهم شاهدوا تنزُّل الوحي على الوقائع والأسباب، وهذا خاص بالصحابة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ١٠٤).

(٢) النكت (٢/ ٥٣١-٥٣٣).

٣- معرفتهم بأحوال مَنْ نَزَلَ فيهم القرآن الكريم من المسلمين والمشركين واليهود.

٤- كونهم أهل اللسان العربي الذي نزل به القرآن، فهم أهل فطرة لغوية سليمة.

٥- معرفتهم بالاصطلاحات الشرعية.

٦- سلامة معتقدهم، وحسن فهمهم.

٧- إضافة إلى عدم تأثرهم بالخلافات العقدية والمذهبية التي حرَّفت كثيراً من التفاسير إلى مناهج منحرفة.

هذه المنطلقات تنطبق على تفسير الصحابة، ويشاركهم التابعون في بعضها من كونهم عاشوا في القرون المفضلة، ومعرفتهم بلسان العرب أكثر ممن جاء بعدهم، إضافة إلى أنهم أخذوا كثيراً من التفسير عن الصحابة.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن التابعين مَنْ تَلَقَّى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها»، ولهذا قال الثوري: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به»، ولهذا يعتمد على تفسيره: الشافعي، والبخاري، وغيرهما من أهل العلم، وكذلك الإمام أحمد، وغيرهم ممن صنّف في التفسير»[١].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص (٣٧).

المبحث الثاني: من معالم التيسير في تفسير السلف

هذا المبحث هو صلب هذا البحث، وقد قمت برصد هذه المعالم من خلال قراءة أقوال السلف في تفسيري الإمام ابن جرير الطبري، والدر المنثور للسيوطي، وقد قرأت بعض جزء عمّ لاستخراج هذه المعالم، مع بعض الأمثلة التي تيسر لي رصدها في قراءات متفرقة.

وكان منهجي في هذه المعالم هو وضع عناوين لها، مع ذكر أمثلة لها، وركَّزتُ على هذا المنهج في تناولي هذا المبحث اختصاراً، ووصولاً إلى هدف هذا البحث؛ ولذا لم أتناول هذه المعالم بالحديث عن تأصيلها في التفسير؛ لأن هذا شائع في كتب أصول التفسير، وعلوم القرآن، مثل: الحديث عن أسباب النزول، والتفسير النبوي، وغيرهما من حيث أهميتهما ومكانتهما في التفسير.

١- الوقوف عند التفسير النبوي:

لا يخفى أهمية التفسير النبوي ومكانته، وقد كان من مهمة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيان القرآن كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ويُعْنى التفسير النبوي بالآيات التي لا يظهر للصحابة فهمها على الوجه المطلوب، مثل كونه من أمور الغيب، أو لأن للكلمة مصطلحاً شرعياً غير المعروف في لغة العرب.

ولذا كان من منهج السلف في تفسير الآيات الاقتصار على التفسير النبوي غالباً إنْ وَرَدَ؛ لوضوحه في بيان مراد الآية، حتى إنهم لا يضيفون إليه شيئاً من كلامهم، ولا غرو في ذلك فهو كلام المبلِّغ عن رب العالمين.

ومن أمثلة ذلك:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ذكرت كتب التفسير بالمأثور عن السلف من الصحابة والتابعين ما ورد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في تفسير هذه الآية، واكتفى السلف بهذا البيان النبوي الواضح.

فعن ابن عمر قال: تلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال: (**يقومون حتى يبلغ الرَّشْح إلى أنصاف آذانهم**)[1].

وهذا التفسير النبوي الكريم من أوضح ما يقال في فهم دلالة هذه الآية، وتفصيل هذا الموقف بين يدي الرب.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ [الانشقاق: ٨]، اكتفى السلف في تفسيرها بحديث عائشة.

عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (**ومن حُوسب يوم القيامة عُذِّب**)، فقلت: أليس الله يقول: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾، قال: (**ليس ذلك الحساب، إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب**)[2].

فاكتفى السلف بهذا البيان والتصحيح من رسول الله لمفهوم الآية، ولذا لم يذكر أصحاب التفسير بالمأثور أيَّ قول عن السلف في تفسيرها غير هذا الحديث.

٢- الاكتفاء بسبب النزول في تفسير الآية:

لسبب النزول أثره في تفسير الآيات، وقد يكتفي السلف بذكر أحداث القصة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٨٦٢)، وأحمد في مسنده (٩/ ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٨٧٦)، وأحمد في مسنده (٦/ ٤٧)، والنسائي في الكبرى (١١٦٥٩) وغيرهم.

التي تُفسِّر ألفاظ الآيات، من غير أن يتطرقوا بعد ذلك إلى تفسير الألفاظ، لما ورد في القصة من أحداث تدلُّ على شرح الآيات والألفاظ الواردة فيها.

ومثال ذلك: تفسير مقدمة سورة عبس من آية (١) إلى آية (١٠).

فقد نقل السيوطي[1] عن السلف أقوالهم في سبب نزولها -وبخاصة قول ابن عباس- الذي فصَّل أحداث القصة، ومنه يفهم معاني ألفاظ الآيات وتفسيرها، من غير أن يذكر عنهم بعد ذلك تفسير لكل كلمة أو لفظة من ألفاظ الآيات؛ لوضوح معانيها عبر سياق أحداث القصة.

عن ابن عباس قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾، قال: (بينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبدالمطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً، وجعل عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى، يقال له: عبدالله بن أم مكتوم، يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبدالله يستقرئ النبي -صلى الله عليه وسلم- آية من القرآن، وقال: يا رسول الله علِّمني مما علَّمك الله، فأعرض عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعبس في وجهه وتولى، وكره كلامه وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره، ثم خفق برأسه، ثم أنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ * وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾، فلما نزل فيه أكرمه رسول الله وكلَّمه، وقال له: ما حاجتك، هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده قال له: هل لك حاجة في شيء، وذلك لما أنزل الله ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾).

٣- التفسير بالمعنى:

والمقصود به: هو تفسير الآية بمعناها العام من غير الدخول في تفاصيل تفسير

(١) الدر المنثور (١٥/ ٢٤١)، وانظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١٠٣).

اللفظ وأصله في لغة العرب، ويقابله: تفسير اللفظ.

وهذا هو الغالب على تفسير السلف -كما ذكر ابن القيم- إذ يقول: «وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون، وتفسير على المعنى، وهو الذي يذكره السلف، وتفسير على الإشارة والقياس، وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم»[(١)].

ومن أمثلة ذلك: عند تفسير كلمة ﴿يَحُورَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤]، قال ابن عباس: (لن يُبْعث)[(٢)].

وهذا القول من ابن عباس تفسير بالمعنى لكلمة ﴿يَحُورَ﴾، وهذا التفسير أيسر في فهم الآية، ومن الدخول في تفصيلات تفسير اللفظ، ومعناه الدقيق في لغة العرب.

ومن أمثلة ذلك:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩]. ورد عن السلف تفسير ﴿مَوْرًا﴾ هنا بالمعنى من غير خوض في أصل الكلمة، وتفسير لفظها مباشرة، وهذا أيسر في فهم المعنى العام للآية.

قال ابن عباس[(٣)]: (يوم تشقق السماء)، وقال مجاهد[(٤)]: (تدور دوراً)، وقال الضحاك: (يموج بعضها في بعض)[(٥)].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، ص (٥١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٤٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥/ ٣١٧) وعزاه إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وحكم د. حكمت بشير ياسين على سنده بالحسن. التفسير الصحيح (٤/ ٦١١).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢١/ ٥٧٤)، وسنده حسن كما ذكر د. حكمت بشير في التفسير الصحيح (٤/ ٣٩٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢١/ ٥٧٢)، وسنده صحيح كما ذكر د. حكمت بشير في التفسير الصحيح (٤/ ٣٩٤).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٥٧٢).

قال ابن عطية -معلقاً على أقوال السلف-: «وهذه كلها تفاسير بالمعنى؛ لأن السماء العالية يعتريها هذا كله»[1].

ويعدّ هذا المَعْلَمُ من أهم معالم التيسير في التفسير، وهو الغالب على تفسير السلف كما ذكر ابن القيم.

ولذا من المهم جدًّاً -في قضية تيسير التفسير- جمع أقوال السلف المعتمدة على التفسير بالمعنى؛ للخروج بتفسير ميسر قريب الفهم للعامة[2].

٤- عدم التكلُّف في دلالات الكلمة واشتقاقها:

يُعَدّ هذا المَعْلم من أبرز معالم تيسير السلف لتفسير القرآن؛ إذ إن الغالب على تفسيرهم الاختصار، والاقتصار على مجمل معنى الآية والكلمات القرآنية من غير كثير خوضٍ في التشقيقات، والتفصيلات لأصل الكلمة، واشتقاقها، ومعانيها في لغة العرب.

ومن سبل عدم التكلف: الإجمال في التفسير.

وأمثلة هذا المعلم كثيرة، ومن ذلك:

عند بيان المراد بالأحرف المقطَّعة -التي أطال المتأخرون الحديث فيها- قال أبو جعفر النحاس -في معرض نقله للأقوال فيها-: «وأبْيَن هذه الأقوال قول مجاهد الأول: أنها فواتح للسور، وكذا قول من قال: هي تنبيه، وقول من قال هي: افتتاح الكلام ولم يشرحوا ذلك بأكثر من هذا؛ لأنه ليس من مذاهب الأوائل، وإنما يأتي الكلام عنهم مجملاً...»[3].

---

(١) المحرر الوجيز (١٤/ ٥٣).

(٢) وهو مشروع قد بدأت فيه بجزء عم -بحمد الله- وأسأل الله أن يوفقني لإخراج ذلك بشكل أجزاء حتى يكتمل بإذن الله.

(٣) معاني القرآن (١/ ١٧).

ومن سبل عدم التكلف في التفسير: الاختصار.

ومن أمثلة ذلك: عند تفسير ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ [القلم: ٦]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقال الحسن: أيكم أولى بالشيطان، قال: فهم أولى بالشيطان من نبي الله صلى الله عليه وسلم».

ثم قال شيخ الإسلام معلقاً على تفسير الحسن: «فبيّن الحسنُ المعنى المراد، وإن لم يتكلم على اللفظ كعادة السلف باختصار الكلام مع البلاغة، وفهم المعنى»(١).

ومن أمثلة ذلك: عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، قال الضحاك: (وعيد)(٢).

٥- التفسير بالمثال:

التفسير بالمثال أحد الأنواع الشائعة في تفسير السلف، ويُعدّ من أوضح ما يمكن أن يُعبَّر به لتفسير الآية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير، تارة لتنوع الأسماء والصفات، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى وأقسامه، كالتمثيلات هما الغالب في تفسير سلف الأمة...»(٣).

ومن أمثلة ذلك: عند تفسير مَن المراد بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، ذكر بعض السلف أمثلة لهؤلاء فقال ابن أبي مليكة: «المنّان، والمختال، والذي يقتطع أموال الناس بيمينه بالباطل»(٤).

---

(١) تفسير آيات أشكلت، لشيخ الإسلام (١/ ١٩٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٢١٧)، وذكره البغوي في تفسيره (٧/ ٤٤٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١٣/ ١٢٣) إلى عبد بن حميد.

(٣) مقدمة شيخ الإسلام، ص (٤٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤/ ٢١٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١٥/ ٣٠١) إلى عبد بن حميد.

وما ذكره ابن أبي مليكة هنا هي أمثلة لهؤلاء المحجوبين عن ربهم.

ومن أمثلة ذلك: عند تفسير المراد بـ «الغيب» في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣]، قول زرّ[١] بأن الغيب: هو القرآن، وقول عطاء[٢]: إنه القدر.

قال الراغب معلقاً على هذين القولين: «تمثيل لبعض ما هو غيب، وليس ذلك بخلاف بينهم، بل كل أشار إلى الغيب بمثال»[٣].

٦- التفسير بالنتيجة والثمرة، والأثر، والهدف من الآية:

فقد يفسر السلف الآية بنتيجتها وما تؤول إليه، ويؤدي هذا التفسير معنى الآية بوضوح.

ومن أمثلة ذلك: عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤].

قال القاسم بن الوليد الهَمْداني: «إذا سيق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار»[٤].

فهذا التفسير ليس لألفاظ الآية، بل هو للأثر الذي يعقب هذه الآية، إذ إنه دخول أهل الجنة للجنة، وأهل النار للنار لا يكون إلا بعد قيام الساعة.

وهذا المَعْلَمُ من معالم التيسير في تفسير السلف هو من أنواع تيسير السلف الشائع في تفسيرهم، قال الزركشي في صدد ذكره أنواع تفسير السلف وبيان أسرار تعدد أقوالهم: «وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخر بمقصوده

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ٢٤٢)، وذكره البغوي في تفسيره (١/ ٦٢) بلفظ: الوحي.
(٢) ذكره الراغب في مقدمة جامع التفاسير منسوباً إليه، ونسبه ابن كثير إلى زيد بن أسلم.
انظر: مقدمة جامع التفاسير ص(١٥٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٦٧).
(٣) مقدمة جامع التفاسير، ص (١٥٥).
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٩٧)، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ٥٥٨)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١٥/ ٢٣٥) إلى ابن المنذر.

وثمرته، والكل يؤول إلى معنى واحد غالباً»[١].

- ومن أمثلة التفسير بالأثر:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فسَّرها مجاهد بأثر هذا الخوف فقال: "الرجل يَهمُّ بالمعصية فيذكر الله عزّ وجلّ فيدَعُها"[٢].

- ومن أمثلة التفسير بالهدف:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، قال ابن زيد: «فيما انتفعوا به»[٣].

فابن زيد هنا فسَّر الآية بهدفها، فهدف مجيء الهدى هو الانتفاع، وهؤلاء لم ينتفعوا به.

٧- التفسير بالواقع الذي نزلت الآية لمعالجته:

فقد يكتفي السلف في تفسير الآية بذكر الواقع الذي نزلت الآية لمعالجته بالإنكار أو التصحيح.

ومن أمثلة ذلك:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]، قال قتادة: «وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، ويَغْذُو كلبه، فعاب الله عليهم ذلك»، وقال الربيع بن خثيم: «كانت العرب من فعل الناس لذلك»[٤].

فقتادة والربيع في قولهما السالف اكتفيا بذكر واقع العرب الذي نَزَلَتْ هذه الآية

---

(١) البرهان (٢/ ١٦١).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ٢٣٦)، وحكم د. حكمت بشير بأن أسانيد هذه الرواية يقوي بعضها بعضاً. التفسير الصحيح (٤/ ٤٢٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ٥٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤/ ١٤٧-١٤٨).

تُنْكِرُهُ وتبيِّن خطأ فاعليه.

٨- التفسير باستخدام الوسائل التعليمية:

وهذا الـمَعْلَم مـن المعـالم المهمـة في شرح الكـلام وتوضـيحه، ولـه دوره الكبـير في تفسير المقصود بطريقة التمثيل باستخدام وسـيلة مـن الوسـائل التـي تحـاكي واقـع الآية.

ومثال ذلك:

عند تفـسير قولـه تعـالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، قـام الإمام مجاهد بالتمثيل لمعنى هذه الآية باستخدام يده، لإيضاح معنى الران على القلوب قال الأعمش: «أرانا مجاهد بيده، قال: كانوا يُرَوْن القلب في مثل هذا -يعنـي الكـفّ- فإذا أذنب العبد ذنباً ضُمّ منه -وقال بأصبعه الخنصر هكذا- فـإذا أذنـب ضـمّ أصـبعاً أخرى، فإذا أذنب ضم أصبعاً أخرى، حتى ضمَّ أصابعه كلها، ثم يطبـع عليـه بطـابع. قال مجاهد: وكانوا يرون أن ذلك الرَّين» (١).

فمجاهد هنا استخدم وسيلة من وسائل التعليم وهي يده، فقد مثَّل بها لكيفية أثر الذنوب في القلوب.

٩- التفسير بظاهر اللفظ:

من معالم اختيار السلف للأيسر في فهم معنى الآية تفسيرهم بظاهر اللفـظ وهـذه قاعدة هامة من قواعد التفسير عموماً، ومـن قواعـد الترجـيح في التفـسير، والتفـسير الميسَّر.

ومن أمثلة ذلك:

عند تفسيرهم لمعنى "مُخَلَّدُونَ" في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٠١-٢٠٢).

ذكر ابن جرير معنيين فيها، أحدهما قول مجاهد أن معناها: «لا يموتون»[1]، ثم رجّح ابن جرير هذا التفسير وعَدَّ ذلك أظهر معنييه.

١٠- تفسير الآية ببيان ضد معناها:

وهذا المعلم من المعالم المبينة للمعنى بوضوح، وذلكم أن الأشياء تتبيّن بضدها.

ومن أمثلة ذلك:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧]، قال مجاهد: «لا ينظر أحدهم في قَفا صاحبه»[2].

فقد فسَّر مجاهد هذه الآية بذكر ضد معناها.

١١- تفسير الآية بسياقها القَبْليّ أوالبَعْديّ:

والمقصود بهذا الـمَعْلَم: أن السلف يفسرون الآية تفسيراً ميسراً بما يتضمنه سياق الآية التي قبلها، أو الآية التي بعدها.

ومن أمثلة تفسير الآية بسياقها القَبْليّ:

تفسير ابن زيد لقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فقد فسّرها بمضمون الآيات السابقة لها فقال: «ألا تراه ذكرهم، وذكر منازلهم وأزواجهم، والأنهار التي أعدها لهم، ثم قال: وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، حين أحسنوا في هذه الدنيا، أحسنَّا إليهم أدخلناهم الجنة»[3].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ٢٩٥)، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ١٣٩)، وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر. الدر المنثور (١٤/ ١٨٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٨٠)، وابن أبي شيبة (١٣/ ١٣٨)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٦٣٠) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ٢٥٢).

ومن أمثلة تفسير الآية بسياقها البَعْديّ:

تفسير قتادة لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧]، فقد فسرها بـما دلـت عليه الآيات التـي بعـدها التـي قـسّمت النـاس إلى أقـسام ثلاثـة: أصـحاب الميمنـة، وأصـحاب المـشأمة، والـسابقون، قـال قتـادة في تفـسير الآيـة: «منـازل النـاس يـوم القيامة»[١].

١٢- تفسير الآية ببيان حال من خالفها من الأمم السابقة:

قد يفسر الصحابي آية من كتاب الله ببيان حال مـن خالفهـا ومـا حـصل لـه مـن عقوبة، ويكتفي بذلك لشرح الآية بالمعنى الإجمالي لها.

ومن أمثلة ذلك:

عنـد تفـسير الآيـات مـن سـورة الـرحمن، قولـه تعـالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

قال ابن عباس: "يا معشر الموالي، إنكم قد وليتم أمرين، بهما هلك من كان قبلكم. اتقى الله رجل عند ميزانه، اتقى الله رجـل عنـد مكيالـه، فـإنما يعدلـه شيء يـسير، ولا ينقصه ذلك، بل يزيده الله إن شاء الله"[٢].

(١) أخرجه ابن جرير وعبدالرزاق في تفسيرهما، وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن المنـذر. انظـر: تفـسير الطبري (٢٢/ ٢٨٦)، وتفسير عبدالرزاق (٢/ ٢٦٩)، والدر المنثور (١٤/ ١٧٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ١٧٩).

مسألة: وبعد إيرادي لهذه المعالم للسلف في تيسيرهم للتفسير يجدر بي أن أنبه على مسألة مهمة لها علاقة بهذا الشأن وهي أن: اختلاف السلف في وجوه التفسير لا يخرم قاعدة التيسير في تفسيرهم، بل كل قائل منهم يختار من الأوجه الميسَّرة ما يراه مناسباً للسياق، وهذا سبب أصيل في اختيارهم للأوجه.

قال الزركشي: «ويكثر في معنى الآية أقوالهم واختلافهم، ويحكيه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ، ويظنّ من لا فهم عنده أن ذلك اختلافاً فيحكيه أقوالاً، وليس كذلك، بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى ظهر من الآية، وإنما اقتصر عليه؛ لأنه أظهر عند ذلك القائل، ولكونه أليق بحال السائل»[1].

ومن أمثلة ذلك: اختلافهم في معنى ﴿ كُوِّرَتۡ ﴾ [التكوير: ١].

فقد وردت عدة أقوال معنى التكوير هنا، فقال ابن عباس: (أظلمت)[2]، وقال مجاهد: (اضمحلت وذهبت)[3]، وقال قتادة: (ذهب ضوءها[4])، وقال أبوصالح: (أُلقيت)[5]، وقال الربيع بن خثيم: (رُمي بها)[6].

وهنا نلحظ أن أقوال السلف في تفسير التكوير هنا: ليس تفسيراً للفظ، وإنما تفسير بالمعنى، وكل منهم اختار المعنى الذي يرى أنه يناسب سياق الآية. وليس بينها

---

(١) البرهان (٢/ ١٥٩).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤/ ١٢٩)، وذكره البغوي في تفسيره (٨/ ٣٤٥)، وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، والبيهقي. الدر المنثور (١٥/ ٢٥٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤/ ١٢٩)، وذكره البغوي (٨/ ٣٤٥)، وابن كثير (٨/ ٣٢٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤/ ١٢٩)، وأخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٢/ ٣٥٠)، وذكره البغوي (٨/ ٢٤٥) وابن كثير (٨/ ٣٢٨)، وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم. انظر: الدر المنثور (١٥/ ٢٦١).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ١٣١)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٢٨).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤/ ١٣١)، وعبدالرزاق في تفسيره (٢/ ٣٥٠)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٢٨).

كبير خلاف، فمرجع هذه الأقوال إلى قولين رئيسين، هما: ذهاب ضوئها، وهذا هو مضمون قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. والقول الثاني: رُمي بها، وهذا أحد مضمون قول أبي صالح، ونص قول الربيع بن خثيم، ولكلا القولين وجه صحيح، وذلك أنها إذا كُوِّرت ورمي بها ذهب ضوءها[1].

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١٣١).

الخاتمة

وفي نهاية هذا البحث أخلص إلى عدة نتائج أهمها:

١- حاجة المسلمين عموما إلى تفسير ميسر قريب الفهم.

٢- أن تفسير السلف بعباراته المختصرة الواضحة في كثير منها يمكن الخروج منه بتفسير مختصر، ولذلك جاءت فكرة هذا البحث لدراسة بعض معالم تيسير التفسير عند السلف.

٣- أن لتفسير السلف أهمية خاصة ينطلق من عدة منطلقات،أهم هذه المنطلقات:

تمكنهم من أدوات التفسير، وتوقف بعض أنواع علم التفسير على النقل عنهم، إضافة إلى كونهم أهل الإسلام الذين نزل بلسانهم القرآن، وكونهم في القرون المفضلة.

٤- ثم خلص البحث إلى ذكر بعض معالم التيسير في تفسير السلف ومن أهم هذه المعالم:

الوقوف عند التفسير النبوي، والاكتفاء بسبب النزول، وعدم التكلف في دلالات الكلمة والتفسير بالمعنى، والتفسير بالمثال، والتفسير بالنتيجة والثمرة، والتفسير بالواقع، والتفسير بالوسائل التعليمية، والتفسير بظاهر اللفظ.

فهرس المراجع

١- استدراكات السلف في التفسير في القرون الثلاثة الأولى، دراسة نقدية مقارنة، نايف الزهراني، رسالة ماجستير في جامعة أم القرى بمكة، نوقشت عام ١٤٢٧هـ.

٢- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط، ١٤٠٧هـ، المكتبة العصرية.

٣- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٤- التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، تحقيق: محمد شريف سكر، ط، الأولى ١٤٠٢هـ، دار إحياء العلوم.

٥- التحبير في علوم التفسير، السيوطي، تحقيق: عبدالقادر فريد، ط، ١٤٠٢هـ، دار العلوم.

٦- تفسير القرآن، لعبدالرزاق الصنعاني، تحقيق: د. مصطفى مسلم، ط، الأولى ١٤٠١هـ، مكتبة الرشد – الرياض.

٧- تفسير آيات أشكلت، لابن تيمية، تحقيق: عبدالعزيز الخليفة، ط، الأولى ١٤١٧هـ، مكتبة الرشد – الرياض.

٨- جامع البيان في تأويل آي القرآن، للطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط، الأولى، دار هجر – مصر.

٩- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، لابن عبدالبر، ط، دار الفكر.

١٠- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ط، الثالثة، ١٣٨٧هـ، دار الكتاب العربي - القاهرة.

١١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، مركز هجر – مصر.

١٢- سنن النسائي الكبرى، للإمام النسائي، تحقيق: حسن شلبي، ط، الأولى ١٤٢٢هـ، مؤسسة الرسالة – بيروت.

١٣- صحيح البخاري، للبخاري، ضبطه ورقَّمه: د. مصطفى البغـا، ط، الخامـسة ١٤١٤هـ، دار ابن كثير – دمشق.
١٤- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، بترقيم محمد فـؤاد عبـدالباقي، ط، الأولى ١٤١٢هـ، دار الحديث – القاهرة.
١٥- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، تحقيق: د. محمد ألتونجي، ط، الأولى ١٤١٤هـ، دار عالم الكتب – بيروت.
١٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، دار الفكر.
١٧- فتح القدير، للشوكاني، ط، الثانية ١٣٨٣هـ، نشر مكتبة البابي الحلبي.
١٨- فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب.
١٩- قواعد الترجيح عند المفسرين، للـدكتور حـسين الحـربي، الطبعـة الأولى ١٤١٧هـ، دار القاسم – الرياض.
٢٠- لسان العرب، لابن منظور، دار عالم الكتب، الرياض، ط ١٤١٦هـ.
٢١- مجمـوع الفتـاوى، لـشيخ الإسـلام ابـن تيميـة، جمـع الـشيخ عبـدالرزاق بـن قاسـم، ط ١٤١٢هـ، دار عالم الكتب – الرياض.
٢٢- المحرر الوجيز، لابـن عطيـة، تحقيـق: الرحـالي الفـاروق، وعيـد الأنـصاري، والـسيد عبدالعال، ومحمد الشافعي، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - الدوحة.
٢٣- المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق د. محمد ضياء الرحمن الأعظمـي، الريـاض، مكتبة أضواء السلف، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.
٢٤- المستدرك، للحاكم، مكتبة ومطابع النصر الحديثة – الرياض.
٢٥- المسند، للإمام أحمد، ط عام ١٣١٣هـ، مؤسسة قرطبة – القاهرة.
٢٦- المصنف، لابن أبي شيبة، تحقيق: عامر الأعظمي، ط. الأولى، الدار الـسلفية – بومبـاي الهند.
٢٧- معالم التنزيل، للبغوي، تحقيق: محمـد النمـر، عـثمان ضـميريه، وسـليمان الحـرش، ط،

الرابعة ١٤١٧هـ، دار طيبة – الرياض.

٢٨- معاني القرآن، للنحاس، ط، الأولى ١٤١٠هـ، جامعة أم القرى.

٢٩- المفردات، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، ط، الثالثة ١٤١٨هـ، دار القلم – دمشق.

٣٠- مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، للدكتور مساعد الطيار، ط، الأولى ١٤٢٥هـ، دار المحدث – الرياض.

٣١- مقدمة جامع التفاسير، للراغب الأصفهاني، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، ط، الأولى ١٤٠٥هـ، دار الدعوة – الكويت.

٣٢- مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، تحقيق: د. عدنان زرزور، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ، نشر دار القرآن الكريم.

فهرس الموضوعات